

## حياة ابن عربي و فلسفته

د. عبد الرحمن درکزلی<sup>(\*)</sup>

**ولد** الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي "مُرسية" بالأندلس سنة 560هـ، وما إن بلغ الثامنة من عمره حتى قصد "إشبيلية" لدراسة الفقه والحديث الشريف وعلوم القرآن، فأقام بها قرابة ثلاثين سنة ينهل فيها من مناهل الثقافة والعلم، ثم إنه عقد العزم على مغادرة الأندلس والنزوح عنها إلى المشرق، وكان حينئذ في الثامنة والثلاثين، فضرب في الأفاق، وطوّف في عدد من الأقطار والأصقاع (زار مصر ومكة المكرمة وبغداد وحلب والموصل وآسية الصغرى) وكانت شهرته تسبقه إلى كل مكان يحلّ فيه، كما كان ذوو اليسار يجرون عليه راتباً كبيراً، ولكنه كان ينفق معظمه في وجوه البرّ والخير (يُروى أنّ أحد الأمراء وهبه بيتاً، فما كان منه إلّا أن أعطاه لأحد السائلين)، وخلال زيارته لمصر لقي ابن عربي عنقاً شديداً، إذ اتهمه أهلها بالزندقة وحاولوا اغتياله، وفي مكة المكرمة أحبّ ابن عربي ابنة الشيخ مكين الدين الأصفهاني نزيل مكة فأعجب بجمالها ومبلغ ذكائها وسعة اطلاعها، لذلك نظم فيها مجموعة من القصائد "غزلية دعاهـا ترجمان الأشواق".

عاش ابن عربي حياة حافلة بالتنقّل والأسفار، عامرة بمجالس العلم، غنيّة بالتجارب، وكان غزير النتاج جم التّأليف، كتب -كما قال في إحدى رسائله- مئتين وتسعة وثمانين كتاباً ورسالة، وقد وصفه بروكلمان بأنه "من أخصب المؤلّفين عقلاً وأوسعهم خيالاً"، وذكر أنّ له نحواً من مئة وخمسين مؤلفاً ما تزال باقية بين مخطوط ومطبوع، على أنّه لم يشغل نفسه بالتّأليف وحده، بل شغل شطراً منها بما يشغل الصوفية أنفسهم به عادة من ضروب العبادة وصنوف المجاهدة والأوان المراقية والمحاسبية.

وأشهر مؤلفاته اثنان: "الفتوحات المكيّة" و "فصوص الحكم"، أما الفتوحات فموسوعة شاملة في

(\*) - رئيس قسم التاريخ في جامعة حلب

عقائد الصوفية، جمع فيه شتات علومهم ومصطلحاتهم في خمسمئة وستين باباً، وقد قدّم لنا، في الباب التاسع والخمسين بعد الخمسمئة من الكتاب، خلاصة وافية عنه، ولما طلب ابن عربي من معاصره ابن الفارض أن يكتب شرحاً على تائيته. أجابه ابن الفارض بأنه: لا يعرف لها شرحاً أفضل من كتاب الفتوحات نفسه، أما تسميته بالفتوحات المكية فلأنه ممّا فتح الله به عليه في أثناء زيارته لمكة المكرمة.

"كنت نويت الحجّ والعمرّة، فلما وصلتُ أمّ القرى أقام الله سبحانه وتعالى في خاطري أن أعرف الولي بفنون من المعارف.. وكان الأغلب منها مافتح الله سبحانه وتعالى - عليّ به عند طوافي في بيته المُكرّم" ووصف لنا كيف ألف الفتوحات، فقال:

"جميع ماكتبته وأكتبته في هذا الكتاب إنّما هو من إملاء الهيّ وإلقاء ربّاني، أو نفث روحاني في روح كياني"

أما كتابه الآخر "فصوص الحكم" فيمثل مذهبه في وحدة الوجود، وهو مذهب ظلّ يضطرب في نفسه نحواً من أربعين عاماً وهو لايجرؤ على الجهر به في جملته ولايقوى على إخراجه في صورة كاملة، ويعد كتاب الفتوحات تمهيداً للفصوص وتوطئة له يقول نيكلسون عن "فصوص الحكم":

"ولا تقل الفصوص عنها (أي عن الفتوحات المكية) من حيث عظم الأهمية، وهي مؤلف صغير من سبعة وعشرين فصّاً أطلق على كل واحد منها اسمُ نبيّ، وقد غدت موضع شروح عدّة في العربية والتركية والفارسية".

وممّا هو جدير بالقول والتتويه أن ابن عربي لم يكن يكتب بدافع التأليف والتصنيف وإنّما كان يكتب وهو رازح تحت وطأة قوّة خارقة كانت تلحّ عليه وتحمله على ذلك حملاً وقد وصف لنا هذا بقوله:

"إنه كان يرد عليّ من الحقّ مواردُ تكاد تحرقني فكنتُ أتشغل عنها بتقبيد ما يمكن منها، فخرّجتُ مخرّجَ التأليف لا من حيث القصْد".

\*\*\*

كان ابن عربي -في الحق- ذا شخصية متعدّدة الجوانب والمواهب، فهو متصوّف وفيلسوف وشاعر، وكان ذا مسلكين في الحياة، فهو رصين تقّي أمام الناس مرح متساهل أمام أُنّاده وأصحابه. وكان -كما قال المقرّي- "ظاهريّ المذهب في العبادات، باطنيّ النظر في الاعتقادات". ومع أنه كان ظاهرياً فقد نفى أن يكون تابعاً لابن حزم أو سواه:

نسبوني إلى ابن حزم وإني  
لا، ولا غيرَه، فإنّ مقسالي:  
أو "يقول الرسول" أو "أجمع  
لست ممّن يقول "قال ابن حزم"  
"قال نصّ الكتاب" .. ذلك علمي  
الخلق على ما أقول" ذلك حكمي

وهو مع تمسكه بفرائض الإسلام وعقائده يتخذ الكشف الصوفي أو "النور الباطني" رانداً له ومصدراً أوحده في المعرفة.

وقد اختلف الناس في عقيدته، وفي الحكم عليه، أشدّ الاختلاف، فبعضهم رفعه إلى عليين، وبعضهم وضعه مع الزنادقة والملحدين، يقول ابن العماد:

"وقد تفرّق الناس في شأنه شيعاً، وسلخوا في أمره طرائق  
قدداً، فذهبت طائفة إلى أنّه زنديق لا صديق، وقال قوم: إنه  
واسطة عقد الأولياء ورئيس الأصفياء، وصار آخرون إلى  
اعتقاد ولايته وتحريم النظر في كتبه".

وكان الفيروز آبادي صاحب "القاموس" من أشدّ المعجبين به، حتى إنه طرّز شرحه على البخاريّ بكثير من أقواله، كما كان جلال الدين السيوطي يُجلّه ويقرّه حتى إنه صنّف في الدفاع عنه كتاباً، سمّاه: "تنبيه الغبيّ في تبرئة ابن عربي". ولعل عبد الوهاب الشعراني هو أشدّ المنتصرين له وأكثر المنصفين، إذ ألف كتاباً عنوانه: "اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر"، كما ألف كتاباً آخر دعاه: "تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء". وفيهما دفاع شديد عن ابن عربي وغيره من المتصوّفة وبلغ به الأمر أن لخص كتاب الفتوحات المكيّة في كتابه الموسوم بـ "الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر". ومن الأمور الواضحة أن الناس في كل مكان تعلّقوا بابن عربي، وتهافتوا على مؤلفاته، يشهد على ذلك كثرة الألقاب التي خلعوها عليه، فهو "الشيخ الأكبر" و"الكبريت الأحمر" و"ابن أفلاطون" و"البحر الزاخر" و"سلطان العارفين" .. وعندما ترجم له صفي الدين بن أبي المنصور قال عنه:

"هو الشيخ الإمام المحقّق، رأس أجلاء العارفين والمقرّبين  
صاحب الإشارات الملكوتية، والنفحات القدسية، والأنفاس  
الروحانية، والفتح المونق، والكشف المشرق، والبصائر  
الخارقة، والسرائر الصادقة، والمعارف الباهرة، والحقائق  
الزاهرة له المحلّ الأرفع من مراتب القرب في منازل  
الأنس، والمورد العذب في مناهل الوصل، والطول الأعلى  
في معارج الدنوّ والقدم الراسخ في التمكين من أحوال  
النهاية والباع الطويل في أحكام الولاية".

وفلسفة ابن عربي تقوم أساساً على مبدأ "وحدة الوجود" Pantheism، ومفادها أن العالم بجميع

مظاهره هو الله، وأن ليس في الوجود سواه، وبناء على هذا فالحقيقة عند ابن عربي واحدة، مظهرها العالم، وجوهرها الله، لذلك رأيناه في الفتوحات يقول: "سبحان من خلق الأشياء وهو عينها" وسمغناه في الفصوص يقول:

يَا خَالِقَ الْأَشْيَاءِ فِي نَفْسِهِ  
تَخْلُقْ مَا لَا يَنْتَهِي كَوْنُهُ  
أَنْتَ لِمَا تَخْلُقُهُ جَامِعٌ  
فِيكَ؛ فَأَنْتَ الضَّيِّقُ الْوَاسِعُ

وقد بث مذهبه هذا في تضاعيف كتبه ونثرها في مواضع مختلفة من تصانيفه، وكان تشيبتها عن قصد، فهو يخشى إذا عرضها عرضاً كاملاً واضحاً أن يثير عليه حفيظة الجاهلين وغضب العامة. قال:

"جنت بها مبددة في أبواب هذا الكتاب مستوفاة مبيتة لكنها كما ذكرنا - متفرقة، فمن رزقه الله الفهم فيها يعرف أمرها، ويميزها عن غيرها، فإنها العلم الحق والقول الصدق".

ويترتب على قوله بوحدة الوجود أن الله هو الأصل وأن العالم صدر عنه وفاض منه. ذلك أنه أراد بإيجاد العالم أن يرى نفسه ويظهر جماله، فخلقه ليكون بمنزلة المرأة تتجلى فيه رحمته وقدرته وعدالته كما جاء في الحديث القدسي "كنت كنزاً مخفياً، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق، فبه عرفتني". وقد يفهم بعضهم من هذا أن ابن عربي يقول بالاثنيينية، وليس الأمر كذلك، لأن الحقيقة عنده واحدة، هي الله، وليس المراد بالخلق عنده أن الله أوجد العالم من عدم، وإنما هو الفيض الإلهي، فانه بمنزلة "الواحد" من سائر الأعداد، يتكرر فيها على صور متعددة وأشكال متكررة، وقد صرح بهذا قائلاً:

"وقد ثبت عند المحققين أنه مافي الوجود إلا الله ونحن، وإن كنّا موجودين فإنما وجودنا به، ومن كان وجوده بغيره فهو بحكم العدم".

والخلاصة أن الحقيقة الوجودية واحدة، لا ثنائية فيها ولا تعدد، إذا نظرت إليها من وجهٍ قلت: هي الحق، وإذا نظرت إليها من وجه آخر قلت: هي الخلق.

وأما مايلوح لك في الوجود من تناقض وتعدد وتعارض واختلاف فإنما هو وهم خادع، وضلال ناشئ عن بلادة الحس وقصور العقل وارتباط الإنسان بالمصالح والغرائز والظروف، ولو أنه تحرر من هذه القيود وتفلت من هذه الأشرار لأدرك وحدانية الوجود ولوقف على الأسرار ولا يكون ذلك بالنظر العقلي وإنما بالكشف الصوفي. وليست وحدة الوجود عند ابن عربي وحدة مادية يضحي فيها بفكرة الألوهية. بل العكس هو الصحيح أي أن الوجود الحقيقي هو وجود الله وحده، أما الخلق فهو شبح زائل وظل عابر.



أَدِينُ بِدِينِ الْحَبِّ، أَنَّى تَوَجَّهْتَ  
رَكَائِبُهُ، فَالْحَبُّ دِينِي وَإِيمَانِي

والحب سببه الجمال، والجمال هو الله، والله جميل يحب الجمال، فهو يحب نفسه ومن أحبَّ الجمال لم يحب سوى الله، وإنما أخرج الله العالم كله ليكون مرآته يرى نفسه فيها، وعلى المحب أن يُصمَّ سمعه إلا عن كلام محبوبه، ويُعمي عينه عن كل منظور سوى وجه محبوبه، ويُخرس لسانه عن كل كلام إلا عن ذكر محبوبه ويرمي على خزانة خياله فلا يتخيل سوى صورة محبوبه، فبه يسمع وله يسمع، وبه يُبصر وله يُبصر، وبه يتكلم وله يتكلم.

يَحِبُّ اللهُ النَّاسَ لَهُمْ وَلِنَفْسِهِ، وَلِلْحَبِّ الإِلَهِيِّ -عند ابن عربي- وجهان حبُّ الخلق للحق، وحب الحق للخلق، والحق يبادل الخلق حباً بحبٍ واستيقاقاً باستيقاق، بل إن شوقه إلى المُشْتَاقِينَ أقوى من شوقهم إليه، ومما جاء في "فصوص الحکم" قوله تعالى: "ما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته، ولا بدّ له من لقاى".

\* \* \*

وفي الختام لابد لي من الإشارة إلى أنَّ عظمة فلسفة ابن عربي تكمن في روح الانفتاح والتسامح والحب، يشهد على ذلك أنها تلقتي بالكثير من العقائد الفلسفية عند غير المسلمين، فهي تلقتي بفكرة الفيثا عند الهنود التي تقول إن المعرفة الحقيقية تأتي من طريق الإشراق، وإن الهدف من الحياة هو الاتحاد ببراهمان، كما تلقتي بمبدأ الطاو عند أهالي الصين الذي يقول: إن الله يتجلى في العالم. كما تلقتي بالأفلاطونية الحديثة خصوصاً بفكرة الفيض القائلة إن العالم قد فاض وبأن النفس الكلية كنور الشمس المشرق على غُرف عدة، في كل منها جزء منه. وإن النفس الجزئية تستطيع أن ترجع -خلال حياتها- ولو لحظات معدودة- إلى النفس الكلية لتتال السعادة، وهي تلقتي بالنصيرية في فكرة المحبة. وأغرب من هذا أننا نجد اصدااءً لفلسفة ابن عربي عند كثير من المفكرين من أمثال سبينوزا في فكرة وحدة الوجود، وهيغل في فكرة الجدل (الديالكتيك) وبرغسون في فكرة الحدس والديمومة، وأغرب من هذا وذلك أننا نجد بذوراً من فلسفة ابن عربي لدى السريالية التي تقول: إن المتناقضات قابلة للانحلال. وإن الحقيقة تكمن في العقل الباطن مستودع الأسرار الكونية.. وإذا فلفلسفة ابن عربي تؤهله بحق أن يكون فيلسوفاً كبيراً ومفكراً عالمياً من الطراز الأول.



## المصادر والمراجع

- أبو العلا عفيفي- دار إحياء الكتب العربية،  
مصر 1946.
- 3-ترجمان الأنشواق -ابن عربي- دار صادر،  
بيروت 1961.

- 1- الفتوحات المكية -ابن عربي- تحقيق د. عثمان يحيى، مراجعة د. إبراهيم مدكور الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة 1972.
- 2- فصوص الحكم -ابن عربي- والتعليقات عليه بقلم

## التراث العربي

- 4- تاريخ الفكر العربي - د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت 1966.
- 5- تاريخ الأدب العباسي - تأليف ر. نكلسن - ترجمة صفاء خلوصي - المكتبة الأهلية، بغداد 1967.
- 6 - ابن الفارض سلطان العاشقين - د. محمد مصطفى حلمي - سلسلة أعلام العرب ، عدد ( 15 )، وزارة الثقافة والإرشاد القومي - مصر 1963.
- 7- لقاء القيم في الفكر العربي - عادل العوا - دار شمال للطباعة والنشر، دمشق 1993.
- 8- المزاج الحضاري في الفكر العربي - عادل العوا - المطبعة الجديدة، دمشق 1992.
- 9- الطبقات الكبرى - سيدي عبد الوهاب الشعراني ج 1، بلا مكان/ تاريخ.
- 10- مجلة "تراث الإنسانية" وزارة الثقافة والإرشاد القومي - المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - المجلد الأول (2،3). مقال "الفتوحات المكية" للدكتور أبو العلا عفيفي.
- 11- دائرة المعارف الإسلامية، مادة "ابن [ال-] عربي" ص 343.
- 12- دائرة المعارف البريطانية.

